

# المركز للخطوط العربية مجددنا في تراثنا

خدمات

بحثية

تصوير

مخطوطات

تم تصوير المقال عن طريق  
مركز أمجاد للمخطوطات ورعاية الباحثين

العنوان: أسامة بن منقذ الكتاني وقصة مخطوطة كتاب المنازل والديار

المؤلف: عيسى فتوح

جهة النشر : مجلة المجمع العلمي العربي أبريل - 1999

عدد الأوراق: من صفحة ٤٠٩ - ٤١٤

ملاحظات:

KSA: (00966) 0566489234

EGY: (002) 01001133781

www.amgadcenter.com

<https://www.facebook.com/amgadcenter>

<https://twitter.com/amgadcenter>

<http://www.youtube.com/user/amgadcenter>

[info@amgadcenter.com](mailto:info@amgadcenter.com)

## أسامة بن منقذ الكناني وقصة مخطوطة كتابه «المنازل والديار»

الأستاذ عيسى فتوح

كنت أظنّ فيما مضى أن الشاعر والفارس أسامة بن منقذ الكناني (٤٨٩-٥٨٤ هـ، ١٠٩٥-١١٨٨ م) لم يؤلف إلا كتاب «الاعتبار»، الذي حققه المؤرخ اللبناني الدكتور فيليب حتي، إلى أن اطلّعت على قصة اكتشاف المستشرق الروسي كراتشكوفسكي مخطوطة كتابه الآخر «المنازل والديار» عام ١٩١٨ في روسيا، بعد أن نقلها إلى هناك السيّد «روسو» ففصل سويسرة في حلب، ثم قام بعد ذلك بتحقيقها ونشرها.

وبعد ذلك بزمان طويل، في عام ١٩٧٥، أعدّ الدكتور وهيب طنوس أطروحة دكتوراه في الأدب العربي، تناول فيها حياة أسامة بن منقذ وشعره وأدبه بأسلوب موضوعي علمي، معتمداً أوثق المصادر التاريخية العربية والأجنبية، وقد وضع لأطروحته عنواناً هو «الوطن في الشعر العربي»، مستنداً إلى كتاب (المنازل والديار) بالدرجة الأولى<sup>(١)</sup>.

لقد درس الدكتور طنوس مؤلفات أسامة بن منقذ الكناني، ومنها كتاب (المنازل والديار)، الذي يقع في / ٢٥٠ / ورقة، تضمها مخطوطة وحيدة للكتاب، فريدة في العالم، ومحفوظة في معهد الدراسات الشرقية، فرع ليننغراد سابقاً (سانت

بترسبورغ حالياً)، والكتاب مؤلف من ستة عشر فصلاً، وفي كل فصل أشعار وقطع نثرية تدور حول المعنى الذي ينطوي عليه عنوان الفصل.

وقد استعرض الدكتور وهيب طنوس موضوعات هذا الكتاب، فأشار إلى أنه حافل بمجموعة كبيرة من الأشعار التي تتسم بالحزن والحنين وذكر التائب والفرار والبكاء على الأطلال والديار، في حين أن المقطوعات النثرية فيه قليلة. وبين أن الدافع لتأليف الكتاب كان دافعاً خاصاً ذاتياً يرمي إلى مواسة نفس المؤلف، والترويح عنها، بعد أن أصابه ألم محض، وحزن قاهر، في أعقاب مأساة أليمة حلت بأهله، فأنت عليهم جميعاً، بعد زلزال مدمر أصاب قلعة شيزر، قرب حماة على نهر العاصي، حيث كانوا يقيمون. لقد كان الكتاب صدى لمأساة أسامة بن منقذ وترجعاً لشاعره الحزينة، فضلاً عن أن المؤلف عمد فيه إلى الاستطراد، فتناول موضوعات ثانوية متنوعة ليس لها ارتباط بالهدف الأساسي للكتاب، وذلك طلباً للتنوع والتسليّة وعدم إرهاق القارئ وإملاله.

كما بين الدكتور طنوس أن قبعة هذا الكتاب تكمن في كونه أثراً أدبياً من آثار القرن الثاني عشر الميلادي (القرن السادس الهجري)، وهذا ما جعله مرجعاً هاماً من مراجع دراسة الأدب في ذلك القرن، فهو يعبر عن روح ذلك العصر، كما يعبر عن شخصية أسامة بن منقذ.

وأشار إلى أن أهمية الكتاب تنبع من أنه يتضمن مادة غزيرة تتميز بطريقة ترتيبها، فهي تصلح لأن تكون أساساً لدراسة الموضوعات الأدبية في الشعر العربي، فقد احتوى الكتاب على نحو من خمسة آلاف بيت من الشعر العربي، بعضها لم يرد في دواوين أصحابها. وقد كان اختيارها يتم عن ذوق أدبي رفيع، وإحساس نقدي مرهف، فالكتاب بذلك يتشابه مع المجموعات الشعرية المشهورة في الأدب العربي كالحماسة والأمالى<sup>(٢)</sup>.

أما قصة العثور على هذا المخطوط الثمين، الذي كتبه أسامة بن منقذ بخط يده،

فيرويه كراتشكوفسكي (١٨٨٢-١٩٥١) في كتابه (مع المخطوطات العربية)، ويذكر فيه الفرحة الغامرة التي تملكته حينذاك، فيقول إنه في نهاية القرن السابع عشر وصل من جنيف إلى سورية شخص يدعى «روسو»، وهو ينحدر من أسرة الكاتب الفرنسي الشهير جان جاك روسو، التي ذاع صيتها فيما بعد، فعاش فيها حياة أفضل من حياته في وطنه، وقد استطاع أن يجمع بعض الثروة. وعشية الثورة الفرنسية كان ابنه قسلاً لحكومته في حلب وبغداد، وكان حفيده قد ترعرع في الشرق بثقافته الفرنسية، وأتقن العربية والفارسية والتركية، واقتنى خطوط أبيه فغداً تاجراً ووكيلاً قسلاً، وأقام في حلب - التي كانت آنذاك مركزاً ثقافياً مهماً - مدة طويلة، فتطور ذوقه الأدبي، ونشأ لديه ميل إلى جمع المخطوطات، فتكوّنت لديه بالتدريج مجموعة كبيرة من المخطوطات اختيرت بمهارة وعناية.

ويبدو أن ظروفه المادية قد ساءت ففكر عام ١٨١٥م أن يبيع هذا الكتاب مع مجموعة الكتب التي اشتراها، فعرضها بادئ ذي بدء على الحكومة الفرنسية، لكنها رفضت شرائها، بسبب ارتفاع ثمنها، والعجز الذي وقعت فيه ميزانية فرنسا بعد حروب نابليون، ولما سمع بها المستشرق الفرنسي سلفستردى ساسي<sup>(٢)</sup>، نقل الخبر إلى صديقه وزير التعليم الشعبي في روسيا السيد أوفاروف، فرحب بشرائها، واشتراها على دفعتين، الأولى عام ١٨١٩، والثانية عام ١٨٢٥، وهكذا خسرت فرنسا هذه المجموعة الثمينة، وظفرت بها روسيا، التي جعلتها نواة لمجموعات المتحف الآسيوي العالمية.

ثم يتحدث كراتشكوفسكي مطولاً عن أهمية مخطوطات روسو التي نقلها من حلب إلى بطرسبرغ، والتي باعها إلى قيصر روسيا، ومنها مخطوطة «المنازل والديار»، التي عثر عليها ضمن هذه المجموعة، فيقول:

«حين أسس مكسيم غوركي داراً لنشر الآداب العالمية، وتمكّن المجمع الاستشراقي من توحيد جميع المستشرقين في عمل جذاب ذي برنامج واسع لأول

مرة، أعد برنامج واسع للكتب العربية التي يلزم ترجمتها، ومنها كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ، ذلك الفارس الصياد الذي عاش إبان حروب الفرنجة. أما كتابه «المنازل والديار» فلم يقف عنده أحد من المستشرقين، باستثناء «فرين»، الذي أشار إليه إشارة خاطفة. أما المستشرق الفرنسي «ديرانورغ»، الذي قضى نصف حياته تقريباً في دراسة مؤلفات أسامة بن منقذ، فلم يعرف شيئاً عن هذه المخطوطة، التي كتبها مؤلفها بخط يده، وهو في السابعة والسبعين من عمره<sup>(٤)</sup>.

### كيف عثر على المخطوطة

يصف كراتشكوفسكي النشوة العارمة التي اجتاحتها حين اكتشفت عيناه برؤية تلك المخطوطة النادرة المخزونة في المتحف الآسيوي، ويروي كيف ارتعشت يده وتملكه الرعب، فيقول: «لقد ارتعشت يداي، وتملكني الرعب حين فحت هذا المجلد، فقد فكرت، على الرغم من التشكك، أنني سأرى حقاً في داخل هذا المجلد سطوراً كتبت عن حياة صلاح الدين ورينشارد قلب الأسد بيد معاصريهما الشريف، صديق الأول وعدو الثاني»<sup>(٥)</sup>.

فتح كراتشكوفسكي المخطوط ذا الجلد الأسود، ونظر في نهايته وبدايته بعطش شديد، وكم كانت خيبته كبيرة، فقد ظهر ناقصاً في بدايته. نهايته غير موجودة، وبدايته كتابتها معادة في فترة متأخرة جداً عن كتابة الجزء الأساسي، وهي مكتوبة بخط آخر وعلى أوراق جديدة.

وبصرح أسامة بن منقذ بأنه ألف كتابه «المنازل والديار» في أواخر حياته حين كان في السابعة والسبعين من عمره، وقد ملأه برثاء أهله، الذين قضى عليهم زلزال دهم «شيزر» في عام ٥٥٢ هـ (شهر آب عام ١١٥٧ م)، فهذه أركانها ودمرها تدميراً، وقضى على أهلها، فلم يبق من بني منقذ أحد ممن كانوا فيها، ونجا أسامة وولده لبعدهما عنها، فيقول: «دعاني إلى جميع هذا الكتاب مائال بلادي وأوطاني من الخراب، فإن الزمان جرّ عليها ذيله، وصرف إلى تصفيتهما حوله وحيله (...) فقد دثر

عمرانها، وهلك سكانها، فعدت مغانيها رسوماً، والمسرات بها حسرات وهموماً، ولقد وقفت عليها بعدما أصابها من الزلازل مألأصابها (...) فما عرفت داري، ولا دور والدي وإخوتي، ولا دور أعمامي وبني عمي وأسرتي، فبهت متحيراً مستعيذاً بالله من عظيم بلائه، وانتزاع ماخوئله من نعمائه... وقد عظمت الرزية حتى غاضت بوارد الذموع وتابعت الزفرات<sup>(١)</sup>.

لم يؤلف أسامة بن منقذ كتاب «المنازل والديار» إثر الزلزال الذي دمر قلعة شيزر، بل انتظر خمسة عشر عاماً حتى هدأت نفسه واستقرت مشاعره، فشرع في تأليفه بعد أن بلغ من الكبر عتياً، وارتاح من خوض المعارك، وممارسة هواية الصيد والقنص.

لقد أتاحت له الحياة المستقرة التي عاشها في حصن «كيفا» (المطلّ على نهر دجلة بين ديار بكر وجزيرة ابن عمر ضيفاً على الأمير فخر الدين) أن يؤلف عدداً كبيراً من الكتب. وقد أحصى له المؤرخون ما يقرب من أربعين كتاباً في الشعر والبلاغة والتاريخ وغير ذلك. وأهم هذه الكتب كتاب «المنازل والديار»، الذي يحتوي على مجموعة كبيرة من الأشعار والمقطوعات الثرية، التي يحكي فيها رواية أو قصة لتوضيح حادثة معينة، أو حقيقة غامضة، وجمع فيها أشعاراً من العصر الجاهلي حتى أيامه، وكلها تعزف أنغام الحزن لفراق الأحبة والديار، والحنين إلى الوطن المهجور، فهو صدى لتراجيديا أوترجيع لمشاعره المؤلمة الحزينة.

لقد بكى أسامة بن منقذ في كتاب المنازل والديار أهله وبلدته «شيزر» بقصائد عامرة بالمشاعر الإنسانية كقوله في إحداها:

حمائم الأيكن هيّجتُنْ أنْجَنا      فليْبيكِ أَصْدَقُنا بَناً وأنْجَنا  
قالوا: تأسُّ وقالوا: بمن؟ وإذا      أفردت بالرزء ما أنفك أسوانا  
استدعى صلاح الدين الأيوبي أسامة بن منقذ إلى دمشق عام ٥٧٠ هـ

(١١٧٤م). وكان «مرهف» بن أسامة من جلسائه، فلعله طلب منه أن يستدعي أباه من معتكفه في حصن كيفا، ففعل، فرعاه صلاح الدين رعاية كريمة وقرّبه وأغدق عليه، وأقطعاه ضيعة في أطراف المعرة وأملأها في دمشق، وأخذ يستشيريه في أمره، ويكتب إليه بأخباره، حين كان يخرج لقتال الفرنجة، وظل يعيش في دمشق، ويلقي بعض الدروس في مدارسها، ويفشى مجالسها العلمية، إلى أن حصلت جفوة بينه وبين صلاح الدين، فانطوى على نفسه وظل كذلك إلى أن وافته المنية عام ٥٨٤ هـ (١١٨٨م)، ودفن في سفح جبل قاسيون على جانب نهر يزيد الشمالي، وكان قبره معروفاً إلى أيام ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان<sup>(٧)</sup>.

ويذكر كراتشكوفسكي أن أسامة بن منقذ حمل معه إلى دمشق من حصن «كيفا» مكتبة كبيرة، كما فعل حين رحل من مصر إلى سورية، غير أن تلك المكتبة التي حملها من مصر غرقت مع باقي أشيائه في البحر، وقد ترك غرق مكتبته جرحاً في قلبه لم يتدمل حتى آخر حياته. أما كتابه «المنازل والديار» فكان من جملة الكتب التي حملها معه من حصن كيفا.

### الهوامش

- ١ - بشير فحصة، مجلة «الإخاء» الإيرانية رقم ٥٢٦ لعام ١٩٧٨.
- ٢ - الدكتور وهيب طنوس: الوطن في الشعر العربي، منشورات جامعة حلب، كلية الآداب ١٩٧٩-١٩٨٠.
- ٣ - سلفستر دي ماسي مستشرق فرنسي (١٧٥٨-١٨٣٨) أنشأ الجمعية الآسيوية الفرنسية، وبث في قلوب معاصريه الفكرة على الدروس الشرقية، ولا سيما العربية. له مؤلفات عديدة في الشؤون الشرقية.
- ٤ - مع المخطوطات العربية لكراتشكوفسكي، منشورات دار التقدّم بموسكو، صفحة ١٥٥.
- ٥ - المصدر السابق، ص ١٦٦.
- ٦ - المصدر السابق، صفحة ١٦٩.
- ٧ - مقدمة المختار من كتاب «الاعتبار»، د. عبد الكريم الأمتشر، وزارة الثقافة ١٩٨٠، صفحة ٧ و ٦.